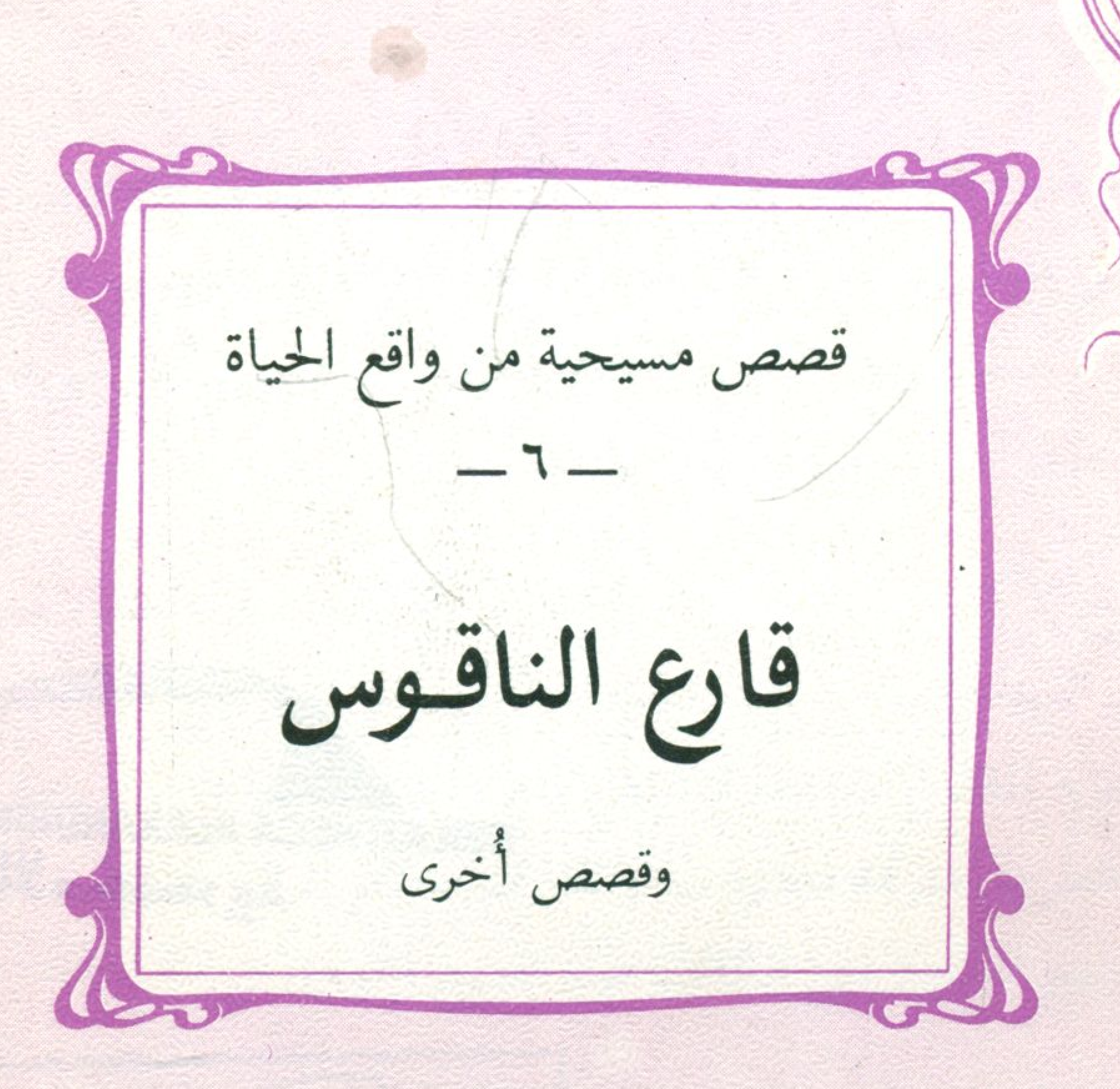


قصص مسيحية من واقع الحياة

— ٦ —

قارع الناقوس

وقصص أُخرى

دار مجلة مرقس

قارع الناقوس

بقلم: فلاديمير كورولنكو
تعريب الأستاذ منير البعلبكي



الظلام يلف الدنيا بجناحيه.

والقرية الصغيرة الآمنة إلى جوار الجدول البعيد، في غابة من الصنوبر، تغرق في ذلك الشفق الخاص بليالي الربيع ذوات النجوم، عندما يتصاعد الضباب من الأرض، فيزيد ظلال الغابات عمقاً، ويملأ المطارح الطلقة بغمام أزرق فضي. كل شيء ساكن، مفكر، حزين، وأجفان القرية تذبل و يدركها النعاس. .

كانت ملامح الأكواخ البائسة سوداء قاتمة لا تكاد تبين. وكانت الأضواء تلمع ههنا وههنا. و بين الفينة والفينة، كنت تسمع باباً يئن، أو كلباً يعوي فجأة ثم يقلع عن العواء. وكانت الغابة المظلمة المدمدمة تتكشف أحياناً عن وجه راجل، أو وجه فارس، أو عن عربة تشق الطريق مترنحة متعثرة ... أولئك هم سكان المزارع المنعزلة، القاصدون كنيستهم في عيد الربيع الكبير (يعني الكاتب عيد الفصح المجيد).

وكانت الكنيسة تواجه القرية من على رابية قائمة في وسطها. وكان برجها العتيق الطويل ضائعاً في السماء الزرقاء.

وكان صرير السلم يُسمع في وضوح عندما أخذ قارع الناقوس العجوز، ميخاييتش، يصعد إلى برج الكنيسة وفي يده فانوسه الصغير المتأرجح في الهواء كنجمة من مكان بعيد ...

لقد كان عسيراً على هذا الرجل الهرم أن يرتقي السلم، فرجلاه لا تسعفانه، وعيناه لا تريان إلا قليلاً ... إن عجوزاً مثله خليق بأن يكون قد أخلد إلى الراحة قبل اليوم. ولكن الله أعفاه من الموت. لقد دفن أبناءه وأبناء أبنائه، لقد شيع شيوخاً فانين، وشباباً

ناضرين إلى مقرهم الأبدي، ولكنه لا يزال يعيش. شيء مؤلم حقاً. لقد استقبل عيد الربيع مرات متعددة، وهو لا يستطيع أن يذكر كم من مرة انتظر، في هذا البرج نفسه، الساعة الموعودة. الآن شاء الله من جديد، أن ...

ومضى الرجل العجوز إلى فجوة البرج واتكأ على قضبان الدرابزين، وأنشأ يتأمل في مقبرة القرية، وسط الظلام، حيث بدت الصلبان القديمة وكأنها تحمي بأذراعها المتطاولة القبور المهملة التي تعطفت عليها بضع شجرات عارية مّن الأوراق. وهبت رياح البراعم العطرية على ميخاييتش، من أدنى، حاملة إليه الشعور بكآبة النوم الأبدي.

ترى أين سيكون في مثل هذا اليوم من العام المقبل؟ أيُقدَّر له أن يصعد مرة ثانية إلى هذا المرتفع تحت الناقوس النحاسي، ليوقظ الليل النعسان بقصفه المعدني؟ أم يُقدَّر له أن يستلقي في الزاوية المظلمة من المقبرة، تحت الصليب؟ الله أعلم! ... لقد كان هو على استعداد، ولكن الله أسبغ عليه في الوقت نفسه نعمة الترحيب بالعيد كَرَّةً أخرى.

وهمست شفتاه: «الحمد لله!» فيما تطلعت عيناه إلى السماء المشرقة بمليون من النجوم المتألقة، ورسمت يده إشارة الصليب ...

ولكن الوقت قد حان، ونظر ميخاييتش مرة ثانية إلى النجوم، وخلع قلنسوته، ورسم إشارة الصليب، وأمسك بزمام الناقوس. وما هي إلا لحظة حتى رجَّع هواء الليل الضربة المدوية. وتعاقبت الضربات، واحدة بعد أخرى مالئة العشية الهادئة المقدسة بأنغامها القوية المترنمة.

***

وسكت الناقوس. لقد بدأت الصلاة في الكنيسة. وكان من عادة ميخاييتش أن ينزل ليقف في الزاوية قرب الباب فيصلي و يستمع إلى الإنشاد. ولكنه ظل هذه المرة في

البرج. لقد كان عسيراً عليه أن يهبط درجات السلم. وفوق ذلك، فهو يحس تعباً وإعياء. واستوى على المقعد واستسلم للتأملات وهو يصغي إلى أصوات النحاس الذائبة. ولكن فيم كان يفكر؟ ذلك ما لم يكن يدر يه على التحقيق ... وكان مصباحه يخلع على البرج ضوءاً قاتماً وكانت الأجراس لا تزال تتذبذب وترتجف وقد حجبتها الظلمة. و بين الفينة والفينة، كانت تبلغ سمعه أنغام الغناء الصاعدة من الكنيسة، ور ياح الليل تثير الجبال الموصولة بثغور الأجراس الحديدية.

وحنى العجوز رأسه على صدره، بينما اختلطت في ذهنه الرؤى والخيالات. «إنهم يغنون الآن ترنيمة» ... وتمثّل نفسه في الكنيسة حيث سمع أصوات الأطفال المجتمعين للترتيل، والأب «ناوم» المتوفي من زمن بعيد، يقود القوم في الصلاة، وقد أخذت رؤوس الفلاحين المحتشدة تعلو وتسفل كالسنابل الناضجة في وجه الر يح ... ورأى إلى الفلاحين يرسمون إشارة الصليب ... إنه يعرفهم جميعاً، وإن كانوا قد انتقلوا جميعاً إلى رحمة الله ... هناك أبصر وجه أبيه القاسي، ولمح أخاه يصلي بحرارة. وكان هو أيضاً في الحشد، يفيض شباباً وقوة، و يشيع في أعطافه أمل لاشعوري بالسعادة ... وأين تلك السعادة؟ وفجأة أشرقت خاطرات الرجل العجوز فانكشفت له مشاهد شتى من حياته الماضية ...

لقد رأى عملاً شاقاً، وغماً، وقلقاً. فأين كانت هذه السعادة؟ إن الدهر قادر على أن يخدر وجه الفتى الر يان، و يقوس ظهره القوي، و يعلمه التأوه والتنهد كما علم أخاه الأكبر.

وهناك إلى اليسار، بين نساء القر ية، وقفت حبيبته وقد خفضت رأسها في اتضاع. إنها امرأة طيبة، فعسى أن ترث ملكوت السماء! كم قد شقيت وتألمت هي المسكينة ... إن الفقر والعمل والهموم التي لا مفر منها في حياة المرأة ستُذبل جمالها الغض. إن عينيها ستفقدان بر يقهما. و بدلاً من هذا الصفاء الذي يلف وجهها سيكون إلى الأبد خوف

كـثـيـب من بلايا غير منتظرة... حسناً إذاً، أين كانت سعادتها! ... لم يترك الدهر لهما إلا آبـناً واحداً هو أملهما الوحيد وبهجتهما الوحيدة، ولكنه كان أضعف من أن يحتمل ضروب التجربة والإغراء.

وهـنـاك كـان عـدوه الـشري راكـعـاً يـصلي لله ليغفر له ما قد أراق من دموع اليتامى الـغـزار. لـقـد صـلّـب على نـفـسـه في حرارة، وضرب بجبهة رأسه إلى الأرض ... إن قلب مـيـخايـيتش ليغلي في صدره، وإن وجوه الأيقونات الداكنة إلتقطت آلام الإنسان، وآثام الإنسان.

لـقـد انـقـضى ذلك كله وصار خبراً ماضياً: إن العالم لينحصر الآن بالنسبة إليه، في هـذا الـبـرج، حـيـث تتناوح الرياح في الظلام فتهيج حبال الناقوس ... وخفض العجوز رأسـه الأبـيـض وتـمتم: «لـيـكـن الـرب الإله هو القاضي وهو الحكم»، بينما تدحرجت العبرات في رفق على خديه الذابلين.

***

ونـادى صـوت مـن أدنى «مـيـخـايـيـتـش، هيه، ميخاييتش! أيكون النوم قد غلب عليك؟»

وانـتـصـب الـعـجوز على قدميه قائلاً: «ماذا يا إلهي! هل قد نمت حقاً؟ إن شيئاً من مثل هذا لم يحدث من قبل!»

و بيدين سريعتين مدربتين أمسك بالحبال. وجالت جماهير الفلاحين تحته كالنمال، وخـفـقـت الـرايـات المتألقة بالوشي المذهب في الهواء ... وطاف الموكب حول الكنيسة، (هذه هي دورة الهجعة) ولم يلبث النداء البهيج أن طرق مسمع ميخاييتش: «المسيح قام من بين الأموات، ووطِىء الموت بالموت، ووهب الحياة للذين في القبور!»

واستجاب قلب الرجل العجوز لهذا النداء إستجابة حارة... خيِّل إليه أن المشاعل أسطع إتقاداً من المعتاد، وأن الحشد أكثر اضطراباً ... وبدت الرايات ناضرة بالحياة، وجمعت الريح المستيقظة من رقادها موجات الصوت على جناحيها وحلقت بها، لتذيبها في قهقهة الأجراس البهيجة.

لم يقرع ميخاييتش العجوز في يوم من الأيام كما قرع ذياك النهار! لكأن قلبه قد تحول إلى النحاس المواث، فإذا الأجراس تغني، وتضحك، وتبكي، وإذا الألحان تتناغم تناغماً علوياً، فتصعد في سماء تغص بالنجوم المتقدة، لتعود بعد فتنتصب مرتجفة على الأرض.

وأعلن جرس نحاسي قوي قيام المسيح، فضجَّ آخران بضرباتها المتناوبة المنبعثة من ثغريها الحديديين، في صوت ضخم عريض وفي فرحة وبشر، «المسيح قام! المسيح قام!»

وكأنما خشي جرسان صغيران ناعما النبرة، رقيقا الصوت، أن يتخلفا عن الركب فأسرعا إلى الإلقاء بنغماتها وسط زحام الأصوات القوية، وطفقا كالأطفال الصغار يغنيان في سرعة وفي جذل: «المسيح قام!»

وبدأ البرج العتيق وكأنه يرتجف ويرتج ورددت الريح المصفقة بجناحيها في وجه قارع الناقوس العجوز «المسيح قام!».

ونسي القلب الهرم حياته الملأى بالهموم والأحزان. نسي قارع الناقوس العجوز أن حياته منحصرة في حدود هذا البرج الموحش الضيقة، وأنه وحيد في هذا العالم، كجذع شجرة حطمتها العاصفة ... لقد سمع هذه الأصوات المغنية والمعولة التي كانت تصعد إلى السماء ثم ترتد إلى الأرض الحزينة، وخيل إليه أنه محاط بأبنائه وأحفاده، وأنه يسمع أصواتهم الحلوة، وأن نغمات صغارهم وكبارهم تنسجم في جوقة متآلفة، فهي تغني له

لحن السعادة التي لم يعرفها قط في حياته ... وجذب حبال الناقوس، بينما كانت الدموع تتدحرج على خديه، وقلبه يخفق في شدة وعنف مع وهم السعادة ...

وكان الناس يصيحون تحت البرج و يقول بعضهم لبعض إن ميخاييتش العجوز لم يقرع يوماً بأحسن مما قرع الآن.

وفجأة أطلق الناقوس نغماً مضطرباً أصيب بعده بالخرس. وغنت الأجراس الصغرى لحناً لم يتم، ثم أقلعت عن الغناء وكأنها استشعرت في ذات نفسها الخجل، لتنصت إلى الصدى الكئيب الذي أحدثه ذلك النغم المتطاول المرتعد، يجود بأنفاسه في الهواء ... وسقط القارع العجوز على مقعده مجهداً مكدوداً، وتحدرت دمعتان متباطئتان على خديه الشاحبين.

وأهاب منادٍ بالقوم: «هيه، هناك استعيضوا عنه برجل غيره. لقد ضرب قارع الناقوس العجوز ضربته الأخيرة!»



شجرة الميلاد

من قصص تولستوى

كان في غرفة من غرف السراديب ولد في السادسة، استيقظ ذات صباح في الغرفة الرطبة الباردة يقفقف من البرد في ثيابه الرثة، وجلس على حقيبة أرثّ من ثيابه. ورأى أن نَفَسَه يتصاعد بخاراً أبيض من فه، فأخذ يوالي النفخ متلهياً برؤية البخار طائراً، فيسلي نفسه و يبعد عنها الضجر. وكان يشتهي لو تسنى له أن يأكل شيئاً فيلطف ما به من جوع.

وكثيراً ما كان يدنو من حصير عليها فراش محشو بالتبن. رقدت عليه أمه، وتحت رأسها كيس اتخذته وسادة تسند عليها رأسها.

وما من أحد يعلم كيف وصلت هذه المرأة إلى هذا المكان. فقد تكون قدمت من مدينة أخرى، ففاجأها مرض طرحها هذا المطرح الشقي.

وكانت السراديب لإمرأة تؤجرها، أمسكتها الشرطة لأمر، وسجنتها، وتفرق مستأجرو غرفها في المدينة ليبتهجوا بالعيد، ولم يبقَ إلا بائع الثياب العتيقة. سكر قبل حلول العيد، وهو منذ يومين مرتمٍ على فراشه يعالج خِمَاره. وفي زاوية من الغرفة عجوز في الثمانين من سنِّها، مصابة بداء المفاصل، كانت فيما مضى مربية أطفال، وهي الآن تعالج سكرات الموت زافرة شاكيه، ولسانها يصب اللعنات على الولد كلما أحست منه بحركة، حتى صار يخشى أن يدنو من الزاوية التي ترتمي فيها.

ولما اعتصره الإحساس بالجوع والعطش، برد غليله بما في الرواق من ماء ولكن أنَّى له كسرة خبز يأكلها؟

دنا من أمه مرات ليوقظها، ولكنه تردد ولم يفعل. وأخيراً وقد أخذ الظلام يغمر

السرداب، لأن الليل كان قد أرخى سدوله، ولم يشعل ثمة أحد ناراً. فمر يده على وجه أمه، فأدهشه أن يجده بارداً كجدار الغرفة. فقال في نفسه: ما أشد البرد هنا! ثم وضع يده على كتفها، عن غير قصد، فلم يتحرك. وأحس ببرد شديد في يديه فجعل ينفخ فيهما ليدفئهما. ثم تناول طاقيته من على فراش أمه، ومشى بخطى خفيفة صامتة يتلمس مخرجاً وكان يود لو خرج قبل هذه الساعة، ولكنه خشي أن يصادفه على قرص الدرج الكلب الضخم الذي كان يهر طول النهار على عتبات البيوت المجاورة. أما الآن فقد توارى الكلب، وخرج هو إلى الشارع.

مشى فوجد نفسه في مدينة كبيرة لم ترَ عيناه، من ذي قبل، مثلها. هناك في المدينة التي جاء منها، ظلمة حالكة، وليل دامس، وليس إلا مصباح واحد في الشارع لا يكاد ينيره، و بيوت الخشب المنخفضة تقفل أبوابها منذ إنقضاء النهار، فلا يصادف أحداً خارج بيته، كلهم منزوون في مخادعهم، ومئات الكلاب، بل ألوفها تملأ الليل نباحاً.

على أن هنالك دفئاً، هنالك يعطونه طعاماً، أما هنا ... يا لله لو قُيِّض له شيء يأكله!

وأية ضوضاء، وأي لغط هنا؟ أناس وخيول، وعربات، و برد. آه من البرد! والضباب ينسج خيوطاً من الجليد على أنوف الخيول المُخِبَّة (١)، يقرع حديد سنابكها بلاط الشارع بين الثلج الخاثر. ولكنه جائع يشتهي لو أكل كسرة من أي شيء كان.

وشعر بألم فجائي في أصابعه. ومر به شرطي عَبَرَ عنه كأنه لم يره.

هوذا شارع آخر، ما أوسعه! لا ريب أنهم سيدوسونه فيه بحوافر خيولهم. وما أشد جلبة هؤلاء الناس، يروحون، ويجيئون و يركضون، وما أسطع النور، وأوضح الطريق.

(١) أي التي تعدو وهي تقوم على قدميها الأماميتين مرة، وعلى الخلفيتين مرة أخرى.

وما هنالك؟ نافذة من زجاج كبيرة، وراءها غرفة فيها شجرة تصك السقف برؤوس أغصانها، صنوبرة هي. شجرة الميلاد تضيئها الأنوار، عُلِّقت فيها تحف وأثمار مذهبة، ولعب، وأفراس صغيرة. وفي الغرفة أولاد يتراكضون مرتدين ثياباً جميلة، نظيفة. ثم أنهم يتضاحكون، و يلعبون، و يأكلون و يشربون أشياء كثيرة. ها هي ذي صبية تراقص صبياً، فما أجملها من صبية.

وكانت ألحان الموسيقى تُسمع من خلال الزجاج، فوقف الولد مأخوذاً يستمع، و يبتسم، في حين كانت أصابع قدميه تؤلمه الألم الذي كان يواثب أصابع يديه.

ثم جعل يبكي، وأسرع مبتعداً، ولم يكد يبعد حتى رأى من نافذة زجاج أخرى موائد نثرت عليها قطع الحلواء أصنافاً.

وكانت أصابع يديه قد احمرت من الزمهرير، فهو لا يستطيع أن يطبقها، ولا أن يحركها. شعر فيها بوجع ممض، فبكى. وركض يجري إلي حيث لا يعلم. وإذا هو يرى من زجاج نافذة غرفة فيها شجرة عليها قطع الحلواء حمراء وصفراء مرصعة باللوز، جلست إليها سيدات أربع: مثريات، يوزعن على كل من يدخل عليهن. وكان الباب ينفتح في كل هنيهة أمام أحد الأسياد. فدنا الولد بخطوات الذئب الجائع، وفتح الباب ودخل، فارتفعت الصرخات عالية، ودُفع ورُدَّ إلى الوراء. ثم دنت منه سيدة ودست في يده فلساً وفتحت له الباب فخرج، وقد نزل به خوف وذعر، وسقط الفلس من يده يرن على بلاط الشارع ... إذ لم يستطع أن يطبق أصابعه الصغيرة عليه ليحفظه في يده.

انطلق هائماً على وجهه، وهمَّ بالبكاء، واعتراه خوف شديد، فطفق يركض نافخاً في يديه، لائماً لشعوره بأنه وحيد مهمل.

ورأى جمهوراً واقفاً ينظر بتطفل إلى نافذة، فدنا فشاهد وراء الزجاج لعباً ثلاثاً كبيرة، لابسة ثياباً حمراء وخضراء، تبدو عليها مسحة من حياة. ورأى رجلاً عجوزاً

جالساً يعزف بآلة كأنها الكمنجة ، ورجلين آخرين واقفين قربه يعزفان بكمنجتين صغيرتين ، وكل منهم يهز رأسه هزة موقعة ، و ينظر بعضهم إلى بعض ، بينما شفاههم تتحرك ، فخيل إليه أنهم يتكلمون ، والزجاج يحول دون سماعه كلامهم ، ظن أنهم أحياء ، ثم أدرك أنهم لعب ، فضحك ملء فمه لأنه لم يَرَ مثلهم لعباً ، ولم يخطر بباله أنه يوجد لهم مثيل .

وفيما هو واقف شعر بغصة ، ورغبة في البكاء ، و بأن واحداً يشده من ظهره ، ولد شرير أكبر منه يقف وراءه ، وإذا به يضرب به على أم رأسه ضربة أسقطت طاقيته ، ونفحه برجله فهوى على الأرض ، فضحكوا منه ، وصاحوا به ، فذعر ونهض فارًّا لينجو منهم . ركض بكل ما في ساقيه من قوة ، وهو لا يدري إلى أين يركض . اجتاز رتاجاً دخل منه إلى فناء ، واختبأ هنالك وراء كومة من الحطب ، قائلاً في نفسه : لن يعثروا عليَّ هنا ، لأن الظلام الكثيف يسترني ، قعد وانطوى على نفسه متجمعاً وهو لا يكاد يستطيع تصعيد أنفاسه لما حلَّ به من خوف . شعر في قعوده براحة ودعة ، وانقطع ألم يديه ورجليه واستدفأ كأنه قرب موقد مشتعل . ساوره النعاس فتحرك كأنه لا يريد أن ينام ، ثم قال : ما أطيب النوم هنا ! بعد هنيهة أذهب لأشاهد اللعب مرة ثانية ، وابتسم عندما تذكر أنه تمثَّل اللعب أحياء .

وخُيِّل إليه أنه يسمع أمه ترتل له ترتيلة ، فناداها : أمي ، أريد أن أنام ، ما أطيب النوم هنا !

فسمع همس صوت ملؤه العذوبة يقول له : تعالَ معي يا بنيَّ نشاهد شجرة الميلاد ! فظن أن أمه هي التي نادته ، ولم تكن إياها . فمن الذي دعاه إذن ؟ ولم يكن يرى أحداً ، ولكنه شعر بأن شخصاً انحنى عليه وضمه في الظلام فبسط إليه ذراعيه . وفجأة رأى نوراً باهراً ، وشجرة ميلاد عجيبة ، لم تكن من الصنوبر ، وإنما هي من شجر لم يشاهد مثله فأين هو الآن ؟

كل شيء متلألىء يسطع نوراً أمامه، وحواليه لعب حية: أطفال وطفلات شعّاعون بالأضواء، يحيطون به في دائرة مرفرفين حوله، يقبلونه ويحملونه معهم، فطار، وأبصر أمه، وابتسم لها إبتسامة السعيد، وناداها: أمي، أمي، ما أحسن ما نحن فيه هنا! ناداها ثم جعل يقبل رفاقه الصغار، وود لو قص عليهم قصة اللعب اللواتى هن وراء الزجاج. ثم سألهم مبتسماً لهم: من أنتم أيها الصبيان؟ و يا أيتها الصبيات من أنتن؟ فأجابوه: هذه شجرة الميلاد عند المسيح. كل سنة في مثل هذا اليوم تنصب عند المسيح شجرة ميلاد للأولاد الذين لا شجرة ميلاد لهم على الأرض. فأدرك أن كل هؤلاء الصبيان الصغار، والصبيات الصغيرات، كانوا فيا مضى أطفالاً مثله، مات بعضهم في السلال برداً على درج قصور «بطرسبرج» ومات غيرهم رُضّعاً في بعض الملاجىء الفنلندية، ومات آخرون على ثدي أمهاتهم الجافة، وآخرون ماتوا إختناقاً بالهواء الفاسد، في بعض غرف الدرجة الثالثة، من عربات سكة الحديد.

والآن كلهم هنا كالملائكة، كلهم قرب المسيح، وهو بينهم باسط يديه ليباركهم هم وأمهاتهم المسكينات ... وأمهاتهم إلى جانب يبكين. وقد عرفت كل أم آبنها أو آبنتها، يسرعون طائرين إليهن يقبلونهن، ويمسحون دموعهن بأيديهم الصغيرة، و يوصونهن بألا يبكين لأنهم في دعة ومسرة!

□

هناك عند الصباح، وجد الحراس جثة ولد صغير جمدها الصقيع، وراء كومة من الحطب. فبحثوا عن أمه، فوجدوا أنها ماتت قبله بقليل. كلاهما تلاقيا قرب الله في السماء!



من مفكرة الدكتور لويس عوض
(عن جريدة الأهرام)

أنظروا إلى أي مدى يمكن للإنسان
أن ينحدر في طريق الحقد!!

ملائكة وشياطين

[هذه مأساة لبول كلوديل ـ عميد المسرح الشعري أو الشعر المسرحي في الأدب الفرنسي الحديث، وهي مأساة (الفتاة ڤيولين). وإن قُلْتَ هي أسطورة صَدَقْتَ وإن قلتَ هي واقع صَدَقْتَ، فمن الواقع ما تجاوز في غرابته الأساطير. ومع ذلك فمَنْ شاهد هذه المأساة أو قرأها لا يسعه إلا أن يحس بأنها مستوحاة من أسطورة فولكلورية دينية كأساطير الجان والساحرات والملائكة والشياطين.]

نحن في ريف فرنسا نحو عام ١٩٠٠ بين أسرة ريفية صغيرة مكونة من أب مُزارِع من أوساط المُلاَّك اسمه «آن فيركور» وزوجته الطيبة وبنتاه الغريبتان: الكبرى، وهي ڤيولين، والصغرى، وهي مارا. ومع هؤلاء هناك الشاب الفلاح «جاك هوري»، زوج الإبنة، ومهندس في منتصف العمر غريب الأفكار وغريب الكلام، اسمه «بيير دي كراون»، يظهر في بداية المسرحية ويُهَمْهِمُ للفتاة ڤيولين بكلمات جميلة عجيبة ثم يختفي ولا يعود للظهور إلا في ختام المسرحية حين تكون المأساة قد استكملت حلقاتها. ومع ذلك فقد كانت كلماته الجميلة العجيبة بمثابة النبوءة بمأساة الفتاة ڤيولين، وهي مأساة الخير حين يُقدِّم نفسه قرباناً على مذبح الشر، كأنما بقوة قَدَرٍ لا يُقهر يكاد يرقى إلى مستوى القانون الإلهي.

والمهندس «بيير دي كراون» مهندس نزل حيناً ما في ناحية كومبرْنون الريفية بشمال شرق فرنسا حيث يقيم آل فيركور لينشيء الكوبري الكبير على النهر البعيد، وقد جاء ليجمع مواد البناء. لهذا كان من حين لحين يتردد على الأسرة. والآن وقد فرغ من مهمته، فهو يتأهب للرحيل إلى مقر عمله.

وكـان بين بيير دي كـراون والفتاة ڤيولين شيء أشبه شيء بالتيار الكهربائي... أهو الحب؟ لا. لأن الـفـتاة ڤيولين البسيطة تحب جارها الفلاح البسيط الشاب جاك هوري وتـأمل في الزواج منه، ولكن الفتيات في ريف فرنسا كالفتيات في أكثر أرياف الدنيا، يـكـتـمـن عواطفهن ولا يخْتَرْنَ الأزواج إنتظاراً لقرار الأب والأم. ثم إن بيير دي كراون كـان يـكبرها بأكثر من عشرين عاماً... ومع ذلك فقد كان بينه وبينها سر كأسرار الروح التي لا تُـعـرف ولا يُـبـاح بهـا. كـان قـد وعدها بلقاء أخير قبل رحيله ليقول «الوداع». وحين لم تَـرَهُ لم تنم اللـيـل بل سهرت في ثيابها كاملة بعد أن هجع كل من في البيت حتى الهزيع الـثـالـث مـن اللـيـل، ومن مطبخها سمعت الديكة تصيح مرتين، كأنما كانت تنتظره. مُحالٌ أن يرحل هذا الزائر الغريب دون أن يقول «الوداع».

وإذا بـطـارق يـطـرق شـبـاك المطبخ برقَّة قبيل الساعة الرابعة صباحاً. وتَفتح ڤيولين الشباك. إنه بيير دي كراون. وتجفل ڤيولين لحظات.

ــ مَنْ أذِنَ لـك أيهـا الـغـريـب أن تـدق شباكي في هذه الساعة المتأخرة من الليل وكأنك رب هذه الدار؟

ــ ومـاذا تفعلين أنتِ في ثيابك الكاملة حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ لا شك أنـكِ كـنـتِ تنتظرين قدومي... لا تخافي. أنا ما جئت إلا لأقول الوداع. إني أحبك حب الأخ لأخته، وكان لابد أن أراكِ قبل رحيلي. إنما جئت لأقول كلمتين:

ــ «بين أبيكِ وأمكِ وحيث ولدتِ،
كبرتِ أيتها الفتاة كما تكبر الشجرة في البستان.
سعيدة أنتِ بشبابك، لا تعرفين ما الألم.
وهذا، أي ڤيولين، مايسمونه الشقاء.
وهو المكابدة، وهو الدمار، وهو العار...
أي ڤيولين! بين لحظة القمر ولحظة الشمس.
هذه أحْلَكُ ساعة في الليل، حيث السُبات أحلك سُبات،

وحين لا نعرف الأمس من الغد.
أي ڤيولين! هناك من لا يرتوون إلا إذا شربوا
بأفواههم من ينبوع الحياة...
شقي مَن لم يعُدْ يعطش...
شقي من ارتوى فمه فارتوى قلبه.
القلب يظمأ للفضيلة إلى أن يحمل الإنسان صليبه...
الحب الحق لا يعرف النوم ولا الراحة...
كيف تفهمين كلامي إذا قارنتِ الموت بالحياة؟
حبُّ المرأة للرجل شبيه بانسحاق الموت.
شبيه بقرار الساعة الأخيرة.
فمِنْ تَعَاهُدِ الموتى يُولدُ الفاني الجديد.
أما الحب الآخر فهوبكل باب يُفضي بنا إلى الحياة...
العطش الذي لا يُروَى، عطشٌ لينبوع لا يَنْضَبُ».

هذه كلمة. أما الكلمة الثانية فهي:
«العطاء إقتداء بكرم الله...
ومَن يُضحي بنفسه يقدّس نفسه، يا ڤيولين».

هذه هي الكلمات الجميلة الغريبة التي ألقى بها بيير دي كراون إلى ڤيولين وهي تستمع إليه مشدودة إليه كأنما بقوة مغناطيسية... وقبل أن يرحل بيير دي كراون قبّل ڤيولين على خدها وهويقول «الوداع»، قبلة الأخ لأخته.

وكانت الأخت الصغرى مارا قد أيقظها ما دار من حوار في هدوء الليل، فمشت الى المطبخ ولكنها لم تَرَ شيئاً أكثر من قبلة الوداع، ولم تسمع شيئاً لأنها وصلت في اللحظة الأخيرة... وحين رأت «مارا» بيير دي كراون يُقبّل أختها هزّت كتفيها في استغراب

وانصرفت، وهي تُضمر شيئاً رهيباً.

وكان الأب الشيخ فيركور قد عرف من بيير دي كراون من قبل نبأ أقضّ مضجعه. كان لفيركور أخ أصغر مغامر محب للحياة هاجر في شبابه إلى أمريكا لأنه ضاق بالريف وبفرنسا كلها وراح يُجرِّب حظه في الدنيا الجديدة، وهناك تزوج وأنجب ثم انقطعت أخباره.

والآن عرف فيركور أن أخاه قد مات، فاعتزم أن يسافر إلى أمريكا بحثاً عن أسرة أخيه المتوفي ليكْفَلَها، أو عن تِرْكة أخيه المتوفي إن كانت له تركة ليتصرف فيها.

ولكن قبل تنفيذ قراره هذا، كان لا بد له من أن يرتب كل أمور بيته لأن غيبته قد تطول. إن أمامه مشكلتين عاجلتين هما مشكلة ضَيْعته التي أفنى عمره في تنميتها، ومشكلة زواج بنتيه ڤيولين ومارا. وفي ريف فرنسا كما في كل ريف آخر لابد أن تتزوج البنت الكبرى قبل البنت الصغرى. ولم يكن الأمر معقداً، لأن فيركور كان يثق في جاره الفلاح الشاب جاك هوري ويعرف أنه رجل جاد رزين يمكن أن يأتمنه على بنته ڤيولين وعلى ضَيْعته وعلى حماية أسرته من التفكك أو الأخطار؛ وربما أيضاً كان فيركور الشيخ يعرف شيئاً آخر وهو أن جاك هوري يُكِنُّ لڤيولين حباً عميقاً، رغم أن الفلاحين لا يتصارحون كثيراً في أمور الحب.

وهكذا قرر فيركور الشيخ بأن يزوِّج ڤيولين من جاك هوري إن كان راغباً فيها وأن يَهَبَ قسماً من ضيعته مهراً لإبنته. وأفضى بقراره لزوجته الطيبة إليزابيث التي كانت ترى ما يراه؛ غير أنها حاولت ما أمكنها أن تثنيه عن رحلته الأمريكية ولكن دون جدوى. إنها مريضة وقد تموت في غيابه. فيجيبها بأنها ليست بحاجة إليه لكي تموت. إنَّ بيته أوْلَى به وبرعايته من بيت أخيه هذا الطائش الذي تخلى عن كل واجباته ليجوب الآفاق. فيجيبها بأنه قد أتم واجباته نحو بيته وأنه سيتركهم جميعاً مع جاك هوري في يد أمينة. وأولاد أخيه في نهاية الأمر هم عَصَبُ آل فيركور وهم مسئوليته.

ويحسم الأمر على ما يريد فيركور الشيخ، فيستدعي الوالدان البنتين و يعلنانها بالقرار. أما ڤيولين فتستقبل القرار في ابتهاج صامت لأنها تحمل لجاك هوري حباً صامتاً وتعرف أنه يبادلها هذا الحب الصامت. أما مارا، الأخت الصغرى، فقد وقع عليها هذا النبأ وقع الصاعقة لأنها كانت تعشق كذلك جاك هوري وتتمنى أن تتزوج منه... وهكذا وقع المحظور: شقيقتان تحبان رجلاً واحداً. وكانت هذه بداية المأساة.

عرض آن فيركور على الفلاح الشاب جاك هوري يد ابنته الكبرى، فطار من الفرح لأن كل أحلامه قد تحققت. وما أن انطلق فيركور الشيخ في رحلته إلى أمريكا في نفس اليوم حتى إختلت البنت الصغرى مارا بأمها وطلبت من أمها أن تمنع هذا الزواج. يجب أن تُبلغ الأم ڤيولين أن تترك جاك هوري لمارا لأن مارا تحبه ومن حقها أن تكون زوجته... وعبثاً تحاول الأم إقناع مارا بأن ڤيولين هي الأخت الكبرى ويجب أن تتزوج أولاً، وأن هذه إرادة الوالد، وأن جاك هوري نفسه يحب ڤيولين. إن كل مَن في البيت يكرهونها و يضطهدونها ويحابون ڤيولين على حسابها. حتى عند قسمة الضيعة بين بنتيه، فقد اختص الأب فيركور ڤيولين بأخصب جزء في أرضه وترك لها الأرض الجدباء والأدغال غير المثمرة. إنها تكره ڤيولين المدللة من أعماقها لأنها تسلبها كل حق لها تسلبها أرضها وتسلبها مَنْ تريده زوجاً لها، كما سلبتها من قبل تدليل الأب وحنان الأم. كلا لن يتم هذا الزواج ومارا تعرف كيف تجعل جاك هوري ينصرف عن ڤيولين و يتخذها هي زوجاً له.

وتبلِّغ الأُمُّ ڤيولين بما قالته مارا، فتضطرب أعماقها وتهيم ڤيولين في الحقول وقد انتابها شعور غريب بأنها موزعة بين نداءين.

و يأتي جاك هوري ليزور عروسه المستقبلة ڤيولين فلا يجدها في الدار وتنفرد به مارا. و بخبث الأفعى توحي إليه أن أختها ڤيولين تهيم هنا وهناك بلا ضابط ولا رابط وراء حبيبها الكهل بيير دي كراون الذي رأته بعيني رأسها يقبّلها في المطبخ، في فجر ذلك اليوم. و يضطرب جاك هوري رغم أنه لا يصدق ما يسمع، ويخرج باحثاً عن ڤيولين فيجدها على عهده بها الفتاة الرقيقة البريئة الخجول. إنه لا يصدق ما سمع ولكنه يريد

أن يتحقق بنفسه من أن ڤيولين تحبه ولا تحب أي رجل آخر. ومع ذلك فهو يحس بأن شيئاً ما قد تغير فيها. إنها دائمة الإطراق، نظراتها دائماً منكسرة إلى الأرض. وحين يحدثها عن الحب والزواج يجدها ترده في وداعة كأنما في الأمر سر تخفيه، لا أنها تتزوجه، وهي نادمة على ما سببته له من ألم. و يستولي الغضب على جاك هوري. إذن، فما سمعه صحيح من أن بيير دي كراون قد قبّلها، ولا شك أنها استسلمت له كأي بنت فاجرة. وتنتحب ڤيولين ولا تجيب بشيء أكثر من أنها لن تتزوج منه.

ومع ذلك فهو لا يزال يحبها وهو على استعداد لأن يتزوجها رغم سقطتها. و يأتيه الجواب دائماً وسط نشيجها: لا، إنها لن تتزوج منه. وهكذا انتهى الأمر.

والآن، وقد نجحت مارا في إبطال زواج ڤيولين من جاك هوري، فهي قد أعدت لها كميناً آخر. إذن، فڤيولين تعدُّ للزواج من بيير دي كراون. لا، ڤيولين تقول إنها لن تتزوج أبداً.

مادامت ڤيولين — وهي الأخت الكبرى — تقول إنها لن تتزوج أبداً فما حاجتها إلى نصيبها من الضيعة وما معنى تقسيم أملاك الأسرة؟ أليس من العدل أن تتنازل عن نصيبها لأختها الصغرى التي ستتزوج و بذلك يبقى كل شيء على حاله؟ لقد أعدّت مارا وثيقة تنازل ولم يبقَ إلا أن توقِّع ڤيولين الوثيقة. و بلا تردد تمسك ڤيولين بالر يشة وتوقِّع التنازل.

وما أن تفعل ذلك حتى تجفف مارا توقيع ڤيولين بحفنة من رماد ثم تقذف بالرماد في وجه ڤيولين في احتقار بارد، وتمتلىء عينا ڤيولين بالرماد فتصرخ ألماً وهي لا تكاد تبصر شيئاً. وتصرخ مارا قائلة: أنا الآن أملك كل شيء. إني أمقتك، لا، إنك لا تزالين تبصرين طر يقك إلى الباب. هيا أخرجي من هذا البيت فأنا أعلم أن جاك هوري يحبك ولكني أعرف كيف أحصل على ما أر يد وسوف يكون جاك هوري من نصيبي... هيا أخرجي من هذا البيت الذي جلبتِ عليه العار.

ــ ولكن أين أذهب أيتها الأخت القاسية ؟ الله يتولاكِ برعايته ، أيتها الحمقاء .

وهكذا تطرد مارا ڤيولين من بيتها بعد أن سلبتها زوجها ومالها . وتهيم ڤيولين في الوديان والغابات وقد فقدت بصرها بسبب حفنة الرماد . وتتزوج مارا من جاك هوري تماماً كما رتبت مارا .

وهكذا يحدث لڤيولين ما حدث للملك ليرمن قبل عندما نزل لبنتيه الضاريتين عن مملكته ، فطردتاه شر طردة ، وعاش هائماً في الفيافي المجدبة تحت عواصف الشتاء المقرورة . وهذا ما حدث لهذه العذراء العمياء ڤيولين التي أعطت بلا حساب... هامت على وجهها في الغابات الجرداء تأكل من حشائش الأرض وتنام في كهف مقرور . ومع ذلك فقد كان يضيء في قلبها نور إلهي أغْنَاها بالبصيرة عن البصر . ولم يبقَ على جسدها إلا أسْمالٌ ثم أردية من القش والخوص... وشاع عن هذه العذراء العمياء أنها تأتي بالمعجزات فتشفي المرضى وترد البصر إلى العميان .

وكان الإنتقام الإلهي بالمرصاد . فمارا بعد أن تزوجت من جاك هوري ، أنجبت طفلاً سمَّته أوبان ، ولكن الطفل أوبان وُلد أعمى مثل خالته ڤيولين ، مفتوح العينين ولكنه لا يُبصر شيئاً . ضحية بريئة من ضحايا القدر ، ليكون شاهداً ماثلاً أمام أمه ليلاً ونهاراً على جريمتها النكراء .

وتسمع مارا عن هذه القديسة أو الساحرة ڤيولين التي يأتيها الناس في كهفها لتردَّ لهم البصر ، فتحمل غلامها إلى الغابة الجرداء حيث تقطن ڤيولين وتتبع مواقع قدميها الحافيتين على الأرض المكسوة بثلوج الشتاء . وتلتقي الأختان . ولم تكن ڤيولين بحاجة إلى عينين لتعرف أن من يقترب منها هو أختها مارا ، إنما عرفت ذلك بنور القلب . تقول مارا إنها جاءت لتطلب نجدتها لكي تشفي غلامها الأعمى . عجباً لهذه المرأة الجبارة التي تستجدي عطف فريستها ! وتحكي مارا لڤيولين أخبار الضيعة . الأم ماتت ، والأب لم يَعُدْ بعد . وتقود ڤيولين مارا إلى كهفها ، وتوقد ناراً . وتحمل ڤيولين الغلام النائم أوبان بين

ذراعيها فتعصف العواصف خارج الكهف وتهطل الأمطار. و يستيقظ الغلام من نومه فإذا بصره قد ارتدَّ إليه، وهو الآن يبصر الفجر يبزغ خارج الكهف.

□□□

وقبل أن يُسدل الستار الأخير، نرى آخر فصل من فصول الحقد الأسود. نعلم أن مارا خرجت في الليل قاصدة كهف ڤيولين دون أن تعرف لنفسها غاية... وما إن لقيتها على إنفراد حتى أطبقت على عنقها بيديها القويتين وطرحتها أرضاً وذهبت تحطم رأسها على حجر جسيم حتى غابت عن الوجود، ثم ألقت بجثتها في حفرة وغطتها بأوراق الشجر...

ومارا الآن مع زوجها جاك هوري في الدار، وإذا بزائر هو بيير دي كراون جاءهما حاملاً جسد ڤيولين المسكينة و يسوِّيه في هدوء على المائدة ثم ينصرف. وكانت ڤيولين تحتضر، فبقيت لديها كلمات تقولها لجاك هوري. نعم، إنها كانت تحبه، ولكن قبلة بيير دي كراون بدّلت كل شيء. كانت مثل قبلة ملاك الموت على خدها، فعرفت أن الله قد اختارها لأشياء أخرى غير الحب والحياة. إنها لم تكن تحب بيير دي كراون كما كان جاك هوري يتوهم، ولم تره منذ افترقا ليلة القُبلة حتى هذه الليلة حين وجدها جريحة في الغابة بين الموت والحياة. وهي قد فُجعت أن يَظنَّ بها الظنون جاك هوري. إنها لم تحب أحداً غير جاك هوري، ومع ذلك فقد كانت تعلم أن أختها مارا تحبه أيضاً، فضحَّت بنفسها من أجل سعادة أختها. إنها تغفر لأختها كل ما فعلته بها، حتى جريمتها الأخيرة، وتطلب منه أن يفعل ذلك، فلولا أنانية أختها لما استطاعت ڤيولين أن تتحقق أنها قادرة على كل هذه التضحية. إن النهاية اقتربت وهي ترى أخواتها في الألم: القديسة براكسا، والقديسة براكسيدا، والقديسة سيسيليا، العذراء ذات الرأس المقطوع. إنها لا تحب أن تُدفن هنا، فهذا ليس بيتها وهي بغير أب أو أم أو زوج أو ولد. إنما مكانها مقابر الفقراء واليتامى.

وتلفظ ڤيولين أنفاسها الأخيرة، فيغطي جاك هوري وجهها ويحملها الرجال على محفة

إلى حيث طلبت أن يكون مستقرها الأخير.

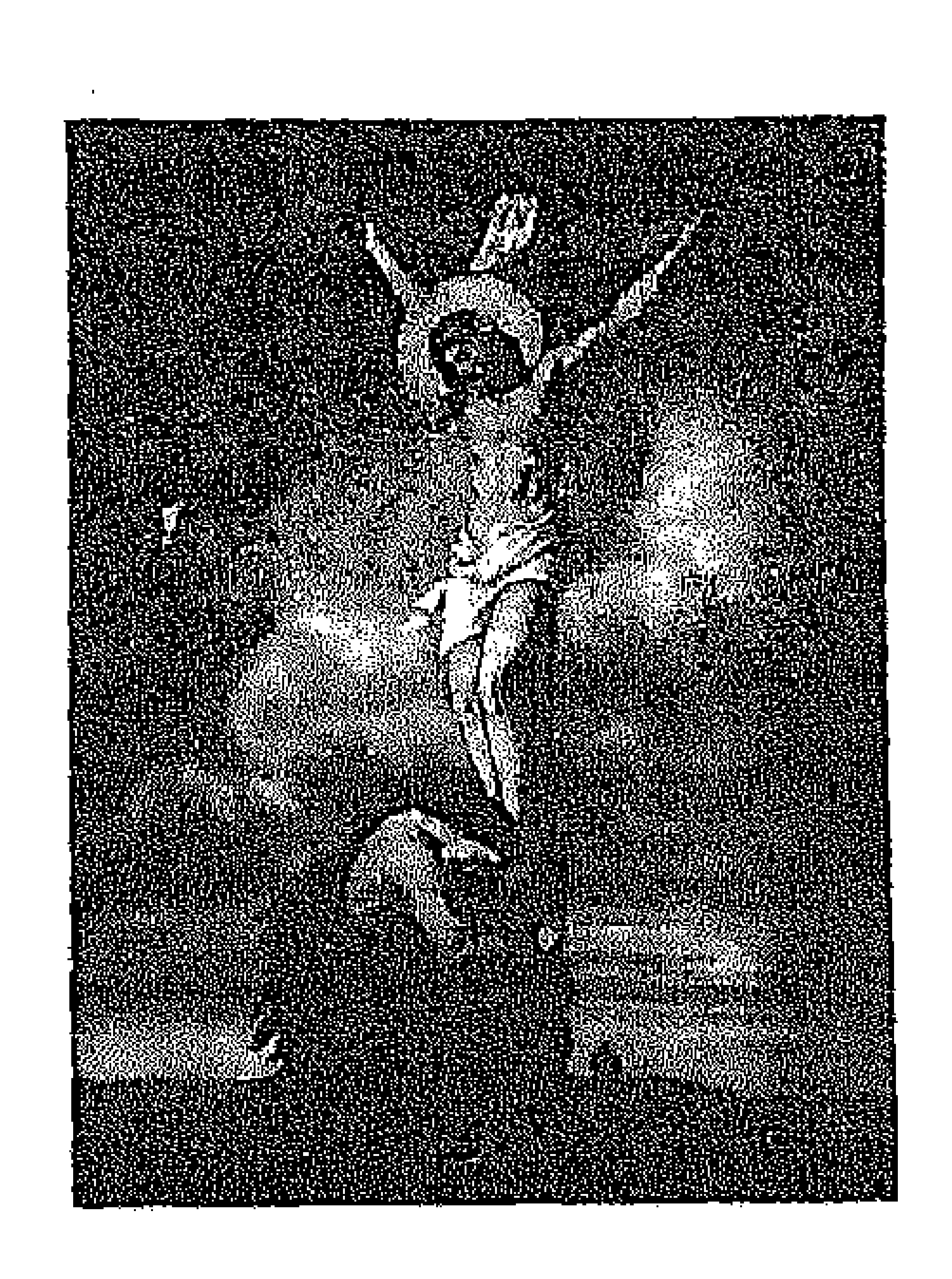
□□□

ماذا يريد كلوديل أن يقول في هذه المأساة؟ لا قُرْبَ من الله إلا بالعطاء، ولا عطاءَ إلا بالفداء. والله الذي خلق ڤيولين والملائكة خلق أيضاً مارا والشياطين. فالعفو للخطاة والشريرين لأنهم أيضاً خليقة الله. إن بيير دي كراون الذي أعدَّها لهذا الحب الأكبر في البداية هو الذي حملها كالشاة الذبيحة في النهاية. وهو ليس رجلاً مثل الرجال، بل رمز لإنكار الحياة الدنيا والفناء في الحب الأكبر ولو أفْضَى إلى الموت. ولا نعلم إن كان هو الذي اصطفى ڤيولين لهذه الغاية أم مجرد دَلَّها على الطريق. والسؤال المُلِحُّ بعد كلوديل هو:

ـ هل الخير لا يتجلى أو يحقق نفسه إلا إذا قدَّم نفسه قرباناً على مذبح الشر؟!

+++

ويجيب الأب متى المسكين على ذلك قائلاً: نعم! أُنظروا إلى صليب المسيح!





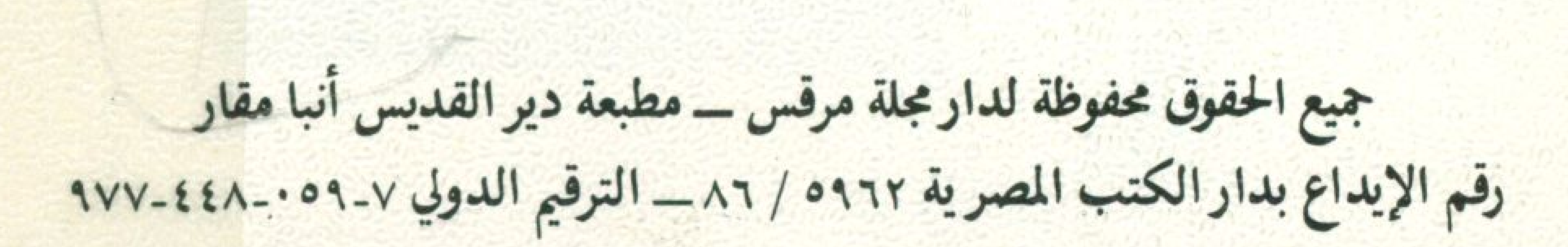
يطلب من :

دار مجلة مرقس

٥٠ «ا» شارع شبرا ــ القاهرة

ت ٧٧٠٦١٤





رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٥٩٦٢ / ٨٦ ــ الترقيم الدولي ٩٧٧-٤٤٨-٠٥٩-٧

ثمن النسخة ٢٥ قرشاً